

الفصل الثانى

العرب والعبريون فى التاريخ

من نسل إبراهيم كانت العرب العدنانية التى تمثلت بطون العرب الأخرى وصهرتها فى بوتقتها ومن ذريته كان العبريون الذين تمثلتهم على مرّ التاريخ شعوب عديدة وصهرتهم فى بوتقتها حتى لم يعد يربطهم باليهود القدامى غير الديانة اليهودية وأسفار التوراة .

ففى المتناثر من الروايات أن العرب ينتهى نسبهم كما ينتهى نسب العبرين إلى سام بن نوح وإلى سام بن نوح نسب « شلوتسر »^(١) هذه المجموعة من الشعوب التى أطلق عليها اسم الشعوب السامية والتى يرى الدكتور جواد على أن يطلق عليها اسم الشعوب العربية بدلاً من السامية لدلالة هذا المصطلح ودقته العلمية فى التعريف بها^(٢) .

فالسامية مصطلح حديث قد سبقه إلى الوجود مصطلح العربية وهو الاسم الذى عمّ وشاع للدلالة على هذه الشعوب التى ينتهى نسبها إلى سام بن نوح إذا أخذنا برواية التوراة أو التى كانت تتكلم لغات أولهجات يبدو أنها مشتقة من أصل واحد إذا أخذنا بطرائق البحث العلمى فى الاستقراء والتعريف .

وقد أدى استعمال هذا المصطلح - مصطلح السامية - إلى خطأ وقع

(١) August Ludwig Schlozer. — 1

(٢) جواد على . الفصل الثالث من الجزء الأول .

فيه علماء الأجناس حين تكلموا عن السامية كجنس له خصائصه ومميزاته البدائية وأخذوا يفرّقون بينه وبين الجنس الآرى على هذا الاعتبار بينما أن شلوتسر لم يقصد ذلك مطلقاً بل كان يعنى به شعوباً تتكلم لغات متقاربة تنتهى إلى أصل لغوى واحد كما تنتهى اللغات الأوربية الحديثة إلى اللغة اللاتينية ، وسواء اعتبرنا السامية دلالة لغوية أو جنسية فمن المسلم به أن نسبتها إلى سام بن نوح يعنى أن هذه الشعوب تنتهى نسباً إليه أما إذا فضلنا أن ننسبها إلى مهدها وهو الجزيرة العربية فنقول الشعوب العربية بدلاً من الشعوب السامية ، فمعنى ذلك أننا نأخذها بالنسبة إلى وطنها الأصلي ولا نشذّ عن المتعارف والمتداول منذ ألفى عام حتى الآن حين أخذ لفظ عربى وعربية يعمّ ويطوى ما عداه من أسماء الشعوب والقبائل التى عاشت فى الجزيرة العربية أوفى الهلال الخصيب وأصبح علماً على قومية متميزة بلغتها وسماتها العقلية والبيئية وقدر لهذه القومية بعد حقبة امتدت إلى ألف عام منذ بدأ لفظ عربى يعمّ ويشيع أن تتأصل وتتمدّد إلى رحاب أبعد مدى من الجزيرة العربية والهلال الخصيب حين بدأت موجة الفتوح العربية والإسلامية تكتسح ما أمامها من سدود وحدود فتتوطن قبائل عربية بأكملها بقاءً جديدة فى شمال أفريقيا وتصبح تلك الساحة من بلاد الرافدين إلى شواطئ الأقيانوس وطن العرب وأرض العروبة .

وتهدينا هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى ظلت مطوية فى غمار الجهل وهى أن هذه الشعوب التى أطلق عليها اصطلاحاً اسم الشعوب السامية كالأشوريين والبابليين والفينيقيين والآراميين والكنعانيين والكلدانين والعبريين والمصريين ليست فى الأصل إلاّ سلالة واحدة هى السلالة العربية لها سماتها الجنسية والحضارية المشتركة إن تباينت قليلاً أو كثيراً فلتباين البيئات الإقليمية ولدواعى العزلة التى كانت عاملاً هاماً من عوامل الانفصال والتباين ، فهذه العزلة الإقليمية هى التى تحمل على

الظنّ أن تلك الشعوب العديدة في مصر والهلل الخصب هي غير الشعوب العربية التي تقطنها اليوم .

ويكشف لنا هذا عن صفحة مطوية أو مجهولة من صفحات القومية العربية وتطورها على الزمن تطوّرًا له مقوماته وسماته المشتركة . فالعرب إذن هم أصحاب هذه الساحة الواحدة التي تعرف بالوطن العربي أو وطن الأمة العربية منذ أبعد عصور التاريخ .

والعربية هي اللغة الكبرى التي تتمثل المجموعة اللغوية السامية قديمة كانت أم حديثة وهي أوسع لغة سامية باقية على وجه الأرض .

أما العبريون فهم جيران العرب وأبناء عمومتهم الأقربون ، فلسطين أقرب بقاع الهلال الخصيب إلى الجزيرة العربية وإن كانت الجزيرة العربية والهلال الخصيب إقليمًا جغرافيًا واحدًا ، فأرض الرافدين والبادية ليست إلا امتدادًا طبيعيًا لجزيرة العرب ، وهم أقرب الشعوب نسبيًا إلى العرب ، كما أظهر البحث العلمي الحديث أن أصول الديانة اليهودية تنم عن أصل صحراوي .

وإذا جارينا التوراة في رواية الأنساب لقلنا إن العرب والعبريين هم على رأيها من سلالة سام بن نوح وهو ما يعيننا في بحثنا هذا عن نبوءات التوراة ودعوى اليهود في فلسطين أو ادعاء أرض الميعاد .

وتعترف التوراة^(١) بنسبة العرب القحطانية إلى سام بن نوح فهم أبناء يقطان بن عامر بن شالح بن أرفكشاد بن سام وهم بذلك أقدم عهدًا من الإسرائيليين كما تعترف بأن إسماعيل جدّ الإسماعيليين هو الابن الأكبر لإبراهيم من هاجر المصرية ومن نسل إسماعيل كانت العرب العدنانية ومن نسل إسحق ولده من سارة كان بنو إسرائيل . وكان القحطانيون

(١) تكوين ١٠ : ٢١ - ٣١ .

أصحاب حضارة ومدينة يعيشون في المدن في الوقت الذي كان فيه الإسرائيليون بدوًا أعرابًا يتجولون في البادية قبل أن يستقر بهم الترحال في فلسطين ويعيشوا على فلاحه الأرض .

وتذكر التوراة^(١) زوجة إبراهيم دعتها قطورة تزوجها بعد وفاة سارة وولدت له ستة من البنين هم زمران وشفان ومدان ومديان ويشباق وشوما ، ومن أبناء يفسان شباودادان ومن أبناء مديان عيفة وعفر وحنوك وأبيداع والدعه . وبنودادان هم أشوريم ولطوشيم ولأميم ومن بطون أولاد إبراهيم لقطورة خرج ست عشرة قبيلة يقول علماء التوراة إنها قبائل عربية^(٢) وليس لهذه القبائل ذكر عند النسابين ولم يرد عنها شيء في بحوث المستشرقين وعلماء التوراة إلا أننا نستطيع أن نقول إن قبيلة مدين التي أصهر إليها موسى هي من ولد مديان بن إبراهيم من زوجته قطورة .

وينتهى نسب إبراهيم الجد الأعلى للعرب العدنانية ولبنى إسرائيل إلى سام فهو إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح ويكون عابر آخر جد تتلاقى فيه القحطانية والعدنانية وبعد عابر ينفصلان فمن يقطان ولد عابر ينحدر القحطانيون ومن فالج ولد عابر ينحدر العدنانيون على ما يقول النسابون وتجري رواية التوراة .

وإبراهيم أو أبرام أحد إخوة ثلاثة من أبيهم تارح هم غير أبرام - ناحور وحاران - ولد في أور الكلدانيين في جنوب العراق لألفى عام ق.م - على ما يقال - وينتمي آل إبراهيم إلى عشيرة بدوية انحدرت من الجزيرة العربية وأخذت تنتقل شمالاً وجنوباً لفترة من الزمن

(١) : ٢٥ - ١ - ٤ .

Hitti : History of The Arabs : P. 40. (٢)

في أرض حاران شمال العراق ^(١) وفي التوراة أن تارح نزع بأبرام ولوط ابن حاران وساراي كنته امرأة ابنه إبراهيم من أور يريد أرض كنعان فخرجوا على حاران وأقاموا بها وفي حاران مات تارح عن مائتي وخمس سنين من عمره ^(٢).

ومن حاران نزع أبرام بأمر الرب إلى أرض كنعان ومعه ذخائره وعبيده وماشيته واختار مقامه من شكيم إلى بلوطة ممرا حيث تقوم مدينة نابلس الآن ^(٣) ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت آيل ونصب خيمته وله بيت آيل من المغرب وعاي من المشرق ^(٤). ثم كانت مجاعة فارتحل إلى مصر وحل بها زمناً ثم ارتحل عنها عائداً إلى حيث أقام خيمته بين بيت آيل وعاي وكان برفقته لوط ابن أخيه حاران الذي صاحبه إلى مصر. وشاء أبرام أن يفترق عن لوط فترك له الخيار في الأرض التي يسكنها « إذا ذهبت شمالاً فأنا يميناً وإن يميناً فأنا شمالاً » وارتحل لوط شرقاً ونقل خيامه إلى حبرون عند بلوطات ممرا حيث أقام مذبحاً للرب ^(٥). ولا ندرى أكانت تتغير أرض الميعاد فيما لو اختار لوط الرحيل غرباً وأقام في أرض كنعان وترك الشرق لأبرام أم أن الأرض المقدسة هي كل ما انتجع أبرام وذووه سواء كانت له أو للوط فإننا نجد أبرام يتشفع لأهل سدوم لمقام لوط بينهم « فتقدم إبراهيم وقال أفتهلك البار مع الأثيم . عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه . حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميم

Learsi Rufus : Israel. P. 3. (١)

(٢) تكوين ١١ : ٢٧ - ٣٢ .

(٣) العقاد : أبو الأنبياء ص ١٨ هامش .

(٤) تكوين ١٢ : ٥ - ٨ .

(٥) تكوين ١٣ : ٨ - ١٣ - وحبرون هي الخليل الحالية .

البارّ مع الأثيم فيكون البار كالأثيم»^(١) .

ثم نجد موسى يحذّر قومه من العدوان على أرض أدوم في خروجهم إلى أرض كنعان « أنتم مارون يتخم إخوتكم بنى عيسو الساكنين في سعيير فيخافون منكم فاحترزوا جدا . لا تهجموا عليهم لأنى لا أعطيكُم من أرضهم ولا وطأة قدم لأنى لعيسو قد أعطيت جبل سعيير ميراثاً^(٢) .

ولما لم تلد ساراي دفعت زوجها أبرام للدخول بجاريتها المصرية هاجر فولدت له إسمعيل فكان أكبر أبنائه رزق به وقد بلغ من العمر ستا وثمانين سنة ، وفي التاسعة والتسعين من عمره وكان إسمعيل ابن ثلاث عشرة سنة عقد الرب مع أبرام عهد الختان وفيه دعى بإبراهيم ودعيت ساراي بسارة وبشر بابنه إسحق من سارة واختن إبراهيم وجميع آل بيته من ذكر وليد البيت والمبتاع بفضة وكان إسمعيل أوّل من ختن من نسل إبراهيم^(٣)

وانتقل إبراهيم من مقامه جنوباً وأقام بين قادش وشور وتغرب في جرار^(٤) وولدت سارة إسحق وقد أوفى إبراهيم على المائة وختن إسحق ابن ثمانية أيام^(٥) .

وغضبت سارة على هاجر « فقالت لإبراهيم : اطرّد هذه الجارية وابنها لأن ابن الجارية لا يرث مع ابنى إسحق فقبح الكلام جدا في عيني إبراهيم^(٦) » .

(١) تكوين ١٨ : ٢٣ - ٣٣ .

(٢) تثنية ٣ : ٤ - ٥ .

(٣) تكوين ١٧ : ٢٣ - ٢٧ .

(٤) تكوين ٢٠ : ١ .

(٥) تكوين ٢١ : ٢ - ٤ .

(٦) تكوين ٢١ : ٩ - ١١ .

« وقال الله لإبراهيم لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريته في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها . لأنه بإسحاق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضًا سأجعله أمة لأنه نسلك^(١) .

فبكر إبراهيم صباحًا وأخذ خبزًا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعًا إياهما على كتفها والولد وصرفها . فمضت وتاهت في بركة بئر سبع . ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار . ومضت وجلست مقابله بعيدًا نحو رمية قوس . لأنها قالت لا أنظر موت الولد . فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت . فسمع الله صوت الغلام . ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر . لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومي واحمل الغلام وشدي يدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء . فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام . وكان الله مع الغلام فكبر ، وسكن في البرية ، وكان ينمو رامى قوس . وسكن في بركة فاران وأخذت أمه له زوجة من أرض مصر^(٢) .

ولم تعرض التوراة لذكر إسماعيل بعد ذلك إلا في موضعين حين ذكرت وفاة إبراهيم فدفعه ابنه إسحق وإسماعيل^(٣) . وحين ذكرت بنى إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم « نبايوت بكر إسماعيل وقيدار وأدبئيل ومبسام ومشماع ودومة ومسا وحدار وتيا وبطور ونافيش وفدمة . هؤلاء هم بنو إسماعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم اثني عشر رئيسًا حسب قبائلهم^(٤) » .

(١) تكوين ٢١ : ١٢ - ١٣ .

(٢) تكوين ٢١ : ١٤ - ٢١ .

(٣) تكوين ٢٥ : ٨ - ٩ .

(٤) تكوين ٢٥ : ١٢ - ١٦ .

ولا نحب أن نعرض لرواية التوراة عن الأرض التي نزلت هاجر بابنها إسماعيل ولا عن زوجه المصرية التي زوجته أمه هاجر فإن القرآن والتاريخ يقصّ من أمرهما ما يختلف في تفاصيله مع رواية التوراة فإن إبراهيم قد خلف هاجر وولدها في وادٍ بعيد كثيراً عن برية بئر سبع نحو الجنوب وكان نيع زمزم في ذلك الوادى البعيد ولكن هل كانت برية بئر سبع تمتد حينذاك فتشمل كل بلاد العرب الشمالية ؟ وليس في ذلك غرابة إذ أن برية بئر سبع هي الامتداد الطبيعي نحو الشمال للصحراء العربية وفي هذا الطريق المار بمكة وبرية بئر سبع كانت ترتحل قوافل التجارة بين الشمال والجنوب .

ومن ولد إسماعيل كانت العرب العدنانية ومن نسل إسحق كان بنو إسرائيل وقد ولد لإسحق توءمان « خرج الأول أحمر كله كفروة شعر الرأس فدعوا اسمه عيسو . وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة يعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب »^(١) .

ونال يعقوب بركة أبيه إسحق دون أخيه عيسو . وارتحل يعقوب إلى فدان آرام بالعراق ليتزوج من بنى خؤولته وفي عودته من العراق بعد عشرين عاماً وفي بعض وحدته خرج عليه إنسان « وصارعه حتى طلوع الفجر . ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذه يعقوب في مصارعتة معه . وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك إن لم تباركني . فقال ما اسمك فقال يعقوب . فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدت »^(٢) . وأصبح يعقوب يدعى إسرائيل فكانت نسبة بنى إسرائيل إليه

(١) تكوين ٢٥ : - ٢٦ .

(٢) تكوين ٣٢ : ٢٤ - ٢٨ .

ومسماهم بعد ذلك . أما عيسو فأصهر إلى بنى إسماعيل وأخذ محلة بنت إسماعيل بن إبراهيم أخت نبايوت زوجة له على نسائه ، ومن نسل عيسو كان الأدوميون سكان جبل سعيّر شرقى العربية التى سميت بأدوم^(١) . فإبراهيم إذن هو الجد الأعلى للإسماعيليين والقطوريين والإسرائيليين وقد نزح إبراهيم كما قلنا من أور الكلدانيين إلى أرض كنعان فدعى بالعبرى أى الذى جاء عبر الفرات^(٢) ودعى آله بالعبريين ، وفى تعليل آخر أن عبرى معناها ساكن البادية أو الصحراء^(٣) وجاءت فى مدونات تل العمارنة بمعنى القبائل الرحل وكان منها من يحترف الجنديّة ويصبح من الجنود المرتزقة^(٤) .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن العبريين هم أحد الفروع العربية التى نزحت إلى الهلال الخصيب فى أزمنة متفاوتة وأن نسب كل من هذه الفروع العربية النازحة التى استقرت وتحضرت إلى أقرب آبائها أو للمناسبة التى نزحت فيها أو للمدينة التى سكنتها فعرفوا بهذه الأسماء العديدة التى تطالعنا للقبائل والشعوب العربية فى الهلال الخصيب أو فى الجزيرة العربية ذاتها فإن هذا لا يغير من حقيقة أنها كلها تنتسب إلى أصل واحد وأنها انحدرت جميعاً من الجزيرة العربية ، وإن لم يطلق عليها مسمى عرب فلأن كلمة عرب لم تكن تطلق إلا على الأعراب أو سكان البادية ، ولو كانت تطلق بالمعنى الشامل الذى تطلق به الآن لعرفت هذه الشعوب كلها كما تعرف اليوم باسم العرب ولأصبحت كلمة عرب دليلاً على المعنى القومى الذى يراد لها الآن .

(١) قاموس الكتاب المقدس ١ - ٥٣ .

(٢) Learsi, Rufus : P.4

(٣) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ٧٧ .

(٤) العقاد : أبو الأنبياء ص ١٦٢ .

والعبرى واليهودى كلمتان لا تعنيان أصلاً واحداً ، فاليهودية نسبة إلى اليهود وتعنى الذين يدينون باليهودية كدين وهى فى الأصل نسبة إلى دولة يهودا وكان الفرس أول من أطلقها على الإسرائيليين حين نسبوهم إلى دولتهم وليس إلى يعقوب الذى سماه ملاك الرب إسرائيل ومن صلبه خرج الأسباط الاثنتى عشرة كل سبط أصبح أصلاً لقبيلة من قبائل إسرائيل والعبرية من عبرى ولا تعنى كاليهودية ديناً كما لا تعنى جنسية معينة ، وقد أطلقها الكنعانيون على إبراهيم وذويه ثم أصبحت تعنى من يدين باليهودية كما تعنى اللغة التى يتكلمها الإسرائيليون ، إلا أن اللغة العبرية لم تكن فى الأصل لغة إبراهيم بل كانت لغة الكنعانيين . فقد كان إبراهيم يتكلم لغة يقال إنها السريانية حتى غدت العبرية لغة اليهود مقدسة تتبر فى نفوسهم من ذكريات الماضى البعيد ما تشيره أرض الميعاد وأورشليم والمعيد فيحفظون تراثها ويحيون آدابها ويربطون بينها وبين ماضيهم ويصبح إحياء اللغة العبرية كالعودة إلى أرض الميعاد أمل اليهود المقدس ولبّ الدعوة الصهيونية فى خرافة القومية اليهودية .

فالعرب والعبريون أبناء عمومة ينحدرون من صلب واحد صلب سام بن نوح ومن صلب إبراهيم وأبنائه انحدرت شعوب عربية كثيرة كما انحدر بنو إسرائيل أحفاد يعقوب .

وما يجرى على إسرائيل من وعود الرب يجرى على غيرهم من أبنائه وأحفاده فإذا تحيّف اليهود على التوراة وقصروا وعود الرب عليهم فهو اجترأ على تفسير الوعود بغير ما قصدت ومارمت إليه وإذا كان لبني إسرائيل ميزة على أبناء عموماتهم العرب فهى الميزة التى كانت لسارة ولولدها إسحق لدى إبراهيم وهى الميزة التى اغتصبها يعقوب وكانت حقاً لعيسو عند أبيهما إسحق فقد كان فى نية إسحق أن يخلف ابنه عيسو وكان يؤثره على يعقوب ولكن حب أمهما ليعقوب جعلها تحتال له لينال بركة أبيه

بدل عيسو . ونرى أن المرأة لعبت دورها في كلا الحالين على غير هوى
الرجل فسارة هي التي حملت إبراهيم على طرد هاجر وابنها إسماعيل ،
ورفقة زوجة إسحق هي صاحبة الحيلة التي احتال بها يعقوب على أبيه
والإيثار كان لحمل الدعوة والسير بالنبوة ولم يكن إيثارًا بالإرث والملك
والزعامة .